البناء
السنة السادسة / الاثنين / 15 أيلول 2014 / العدد 1585
Sixth year / Monday / 15 September 2014 / Issue No. 1585

هل هي حرب على «داعش» أم ذريعة لضرب دمشق؟ ولماذا تقحم واشنطن مسيحيي سورية في حربها؟

الحسن: الضربات الجوية لا يمكن أن تحسم المعركة على الأرض
الشامي: حماية الأقليات شعار أميركي مقدمة للاعتراف بـ«إسرائيل»
بطريركية الروم الكاثوليك: سلامة المسيحيين من سلامة المجتمع

دمشق - رانيا مشوح

كما بات جلياً من التصريحات الأميركية فإن الضربة العسكرية التي أعد لها أوباما عدته كاملة ضد تنظيم داعش على الأرضي السورية والعراقية ستبدأ في غضون الأيام الثلاثين المقبلة، وهو ما يطرح تساؤلات عدة: حول حقيقة استهداف داعش أم أنها الحرب المؤجلة التي حان وقتها على دمشق من بوابة مكافحة الإرهاب والقضاء على التنظيمات المتطرفة، ولماذا تلعب الولايات المتحدة على وتر مسيحيي سورية في هذا التوقيت بالذات.

التباس الموقف

رأى الباحث الاستراتيجي الدكتور تركي الحسن أن الموقف الأميركي فيه التباس كبير لأن من يريد قتال داعش عليه الذهاب والتنسيق مع من يقاتل داعش فعلياً، وبالتالي عليه الانعطاف للتعامل مع الدولة السورية. وأضاف الحسن في حديثه إلى «البناء» أن على الإدارة الأميركية أن تطبّق مضامين القرار 2170 الذي كان من أبرز بنوده منع الحشد والتمويل والتسليح، فإذا كانت الإدارة الأميركية صادقة في نيتها لمكافحة الإرهاب عليها أن تحقق هذه البنود أولاً.

في حين أكد عضو مجلس الشعب السوري الدكتور أنس الشامي أن الولايات المتحدة الأميركية منذ اللحظات الأولى التي صاغت بها سيناريو الشرق الأوسط الجديد، وضعت روايات لضرب النظام السوري، لكنها فشلت بفضل حنكة الساسة السوريين وحكمة القيادة السورية، كما شاهدنا بالأمس الإدارة الأميركية تحرّك الرأي العام حول الكيماوي السوري وفي المقابل نجاح الدبلوماسية السورية بسحب هذا الفتيل من فوهة المدفع الأميركي هي وحلفاؤها وعلى رأسهم روسيا.

وأضاف الشامي: «بعد فشلهم في استغلال الكيماوي، أنشأت أميركا ما يسمى بداعش البعبع الذي ظهر فوراً بعد التوافق على تسليم السلاح الكيماوي، فجاءت به لضرب النظام السوري متنكرة بحجة مكافحة الإرهاب» وتابع: «ندرك المراد لسورية وللمنطقة منذ أن بشرتنا كونداليزا رايس بالفوضى الخلاقة، هذه الفوضى التي نراها في المنطقة».

وأردف الشامي قائلاً: «أنا ومن موقعي الرسمي، أؤكد أن أي مسّ بسيادة سورية، ستكون نتائجه خطرة على المنطقة بأسرها وستتجاوز الحدود الجغرافية، وسيطاول رد فعل كل من يعبث بأمن سورية، كما أن الشعب السوري بات يدرك ما يحاك له، وأن أميركا وحلفاءها شركاء بما يحصل من قتل وتدمير وتهجير».

أكذوبة المعارضة المعتدلة

جددت الولايات المتحدة دعم المعارضة المسلحة التي اعتبرتها معتدلة ومدها بالمال السلاح، ويرى الحسن أن تلك الفصائل والتنظيمات على اختلاف تسمياتها، إما تابعة للقاعدة أو منتجة من الإخوان المسلمين. وأضاف من يريد محاربة الإرهاب عليه التنسيق مع القيادة السورية التي تعتبر في مثل هذه الحالة (كنز المعلومات الأول في سورية).

فيما اعتبر الدكتور أنس الشامي أنه لم تعد هناك معارضة وطنية ولا غيرها فعندما تضرب سورية من عدو خارجي فمن ينتمي حقاً لهذا الوطن عليه التخلي عن انتماءاته الأخرى والوقوف بجانبه ،وأضاف نحن كشعب نقف خلف رئيسنا المنتخب وندرك ما يدور ويخطط لنا من مخططات قذرة.

بالنظر إلى الضربات المحتملة يتبادر سؤال، وهو هل بإمكاننا الثقة بالإدارة الأميركية بأنها ستستهدف المجموعات الإرهابية وأماكن وجودها أم أنها ستقوم بشن غارات على مواقع عسكرية وحيوية سورية خطط لها مسبقاً.

ويرى الدكتور الحسن أن الضربات الجوية لا يمكن أن تحسم المعركة على الأرض فالتاريخ شاهد على ما حصل في أفغانستان واليمن، وأشار إلى أن أي ضربة ولو كانت ضد داعش إذا تمت من دون تنسيق مسبق مع الحكومة السورية فهي بمثابة عدوان.

أميركا وداعش ومسيحيو سورية

صدم أوباما الرأي العام بتصريحه الذي أشاد فيه بدور الحكومة السورية والرئيس بشار الأسد بحماية المسيحيين في سورية، لكن هذا الاعتراف لربما يحمل في طياته مضامين أخرى اعتبرها الشامي كلمة حق أريد بها باطل، فالمسيحيون شركاء في الأرض والتاريخ والحضارة وهم سكان أصليون،

وأضاف: «حماية الأقليات هذا الشعار الذي بدأت تردده الإدارة الأميركية ليلاً ونهاراً أهو بوابة أرادت بها إقحامنا في دوامة ستكون نهايتها الاعتراف بدولة «إسرائيل» فلقد رأينا ما حصل من تمهيد لهذا المخطط من خلال الكلام الذي جاء على لسان الجنرال تيد كروز في العشاء الذي أقيم على هامش مؤتمر الدفاع عن مسيحيي المشرق حين هدد الحاضرين قبل خروجه مطروداً قائلاً إذا لم تقفوا إلى جانب «إسرائيل» واليهود لن نقف إلى جانبكم». وتعقيباً على ما حصل أصدرت بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الملكيين الكاثوليك بياناً أوضحت فيه أن البطريرك لحام جدد موقفه الرافض لتصريحات السيناتور كروز التي تصور المسلمين على أنهم أعداء للمسيحيين واليهود. وأضافت أن البطريرك رفض المشاركة في جلسة حول أوضاع المسيحيين لأنها ملتبسة في مواضعها ومن شخصية المتحدثين فيها، مبينة أن البطريرك لحام اعتبر ذلك خروجاً عن موضوع المؤتمر واستغلالاً للمناسبة من أجل إطلاق مواقف معادية للأنظمة والشعوب والعيش المشترك. في حين كان الشارع المسيحي في سورية يؤكد رفضه التام لأي حرب تشن على سورية بحجة حماية وسلامة المسيحيين، فسلامة المسيحيين وأمنهم من سلامة باقي شرائح المجتمع السوري مُصانة منذ آلاف السنين وإذا كان أوباما يريد الدخول في الحرب وضرب سورية بحجة حماية المسيحيين فإن كل مسيحيي سورية هم فارس الخوري. وعبر الشامي في هذا السياق أننا ندرك أن «إسرائيل» السرطان المستشري وما يجرى لأجل عيونها، فمنذ اللحظات الأولى قرر برنارد ليفي ضرب المشروع العربي الغائب منذ زمن بعيد لم تحمله إلا سورية.

هل حان الوقت لتدق دمشق ناقوس الحرب بمباركة عالمية؟ فقاعة الحرب ما زالت تجول في الأفق، لكن هل ستتمكن مرة أخرى الحكمة السورية من احتوائها أم أن الأيام المقبلة سترمي برذاذها على دمشق؟

ويبقى السؤال الأهم، لماذا حاز التنظيم هذه الشهرة والقوة والسيادة بفترة القصيرة؟ ولماذا اتخذ القرار بالقضاء عليه في مدة أقصر؟ فهل اختلقت أميركا داعش وتعمل على إبادته لشرعنّة ضربها لسورية أم أن الرئيس الأميركي تجاوز المبدأ وقرر أن يكون أول العلاج الكي؟

دول عربية تعرض المشاركة بحملة جوية ضد «داعش»... والأخير يذبح رهينة جديدة

البيت الأبيض متفائل بإمكان تدريب «المعارضة السورية»

تستضيف العاصمة الفرنسية باريس مؤتمراً دولياً خاصاً بالعراق لمواجهة خطر تنظيمَ «الدولة الإسلامية» الإرهابي ولبحث الدور الذي يمكن أن تلعبه كل دولة وافقت على المشاركة في هذا الحلف عسكرياً وسياسياً.

وتحت شعار السلام والأمن في العراق، تستضيف باريس مسؤولي نحو 30 بلداً في مؤتمر، اعتبرته الخارجية الفرنسية استكمالاً لما تحقق على هامش اجتماع حلف الأطلسي الذي عقد أخيراً في ويلز.

وسيكون وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف حاضراً في المؤتمر، إذ اعتبرت الخارجية الروسية أن الخطوة جاءت في الوقت المناسب لإعداد تجمع توافقي واسع وضروري، لمساعدة العراق في مواجهة خطر التنظيم.

ويأتي هذا المؤتمر الذي يبدأ أعماله اليوم على وقع إعلان تنظيم «الدولة الإسلامية» في شريط بثه على الإنترنت أمس ذبح موظف الإغاثة البريطاني ديفيد هينز، وهدد بقتل رهينة بريطانية أخرى، إذا استمرت لندن بدعم الحرب ضده.

وطالب التنظيم رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون بـ«دفع ثمن وعده بتسليح قوات البيشمركة الكردية» لمواجهته، وقال رجل ملثم يرتدي زياً أسود بلكنة بريطانية وهو واقف خلف هاينز الذي كان راكعاً على ركبتيه ويرتدي حلة برتقالية: «هذا المواطن البريطاني سيدفع ثمن وعدك يا كاميرون للبيشمركة بتسليحهم ضد «الدولة الإسلامية»».

وعلى وقع عملية الإعدام هذه استدعى كاميرون قادة الأمن والجيش البريطاني لاجتماع طارئ، إذ كان قد توعد في وقت سابق من أمس بملاحقة قتلة هينز و«تقديمهم للعدالة مهما طال الزمن».

وقال كاميرون في بيان نشرته رئاسة الوزراء البريطانية إن «هذه جريمة قتل خسيسة ومروعة لموظف إغاثة بريء. إنه عمل من أعمال الشر المحض. قلبي مع عائلة ديفيد هينز الذي أبدى شجاعة وصبراً غير عاديين طوال هذه المحنة».

من جهة أخرى، دان الرئيس الأميركي باراك أوباما بشدة «القتل الوحشي» لموظف الإغاثة البريطاني، وقال في بيان إن «الولايات المتحدة تشارك الليلة صديقنا وحليفنا الوثيق الحزن والتصميم» وأضاف: «سنعمل مع المملكة المتحدة وائتلاف عريض من الدول من المنطقة ومن كل أنحاء العالم لجعل مرتكبي هذا العمل البشع يمثلون أمام العدالة ولتدمير هذا التهديد لشعوب بلادنا والمنطقة والعالم».

ونددت فرنسا بالإعدام واعتبرته: «جريمة قتل بشعة تظهر جبن وحقارة التنظيم»، وعبرت عن تضامنها مع عائلة الرهينة وبريطانيا، إذ قال قصر الإيليزي في بيان إن «جريمة القتل البشعة لديفيد هينز تؤكد مرة جديدة ضرورة حشد المجموعة الدولية صفوفها ضد تنظيم الدولة الإسلامية، تنظيم الجبن والحقارة».

الرهينة البريطاني الذي قتلته «داعش»

وفي السياق، قال مسؤولون أميركيون أمس إن عدداً من الدول العربية عرض الانضمام للولايات المتحدة في حملة الضربات الجوية على أهداف لتنظيم «الدولة الإسلامية» في إشارة إلى احتمال توسيع نطاق الحملة الجوية ضد التنظيم الإرهابي.

ورفض مسؤولون الكشف عن الدول التي قدمت العروض لكنهم، قالوا إن هذه العروض قيد النظر فيما تبدأ واشنطن تحديد دور كل دولة في تحالفها الوليد.

وقال مسؤول كبير بوزارة الخارجية الأميركية للصحافيين في باريس: «لا أريد أن أترككم بانطباع أن هذه الدول العربية لم تعرض تنفيذ ضربات جوية لأن عدداً منها عرض ذلك»، مشيراً إلى أن العروض لم تقتصر على الضربات الجوية في العراق. وتابع: «بعضها لمح إلى أنه مستعد لتنفيذ الضربات في مناطق أخرى. لابد أن ننظر في هذا كله، لأننا لا نستطيع أن نذهب ونقصف مكاناً ما».

من ناحية أخرى، قال وزير الخارجية الأميركي جون كيري إنه «متشجع للغاية» من تعهدات دول من داخل الشرق الأوسط وخارجه بإرسال معونات عسكرية في مواجهة تنظيم «الدولة الإسلامية».

وأضاف إن بعض الدول عرضت إرسال قوات برية لهذا الغرض: «ولكننا لا نفكر في ذلك في الوقت الراهن». ولم يسم هذه الدول. مشيراً إلى أن «هذه استراتيجية ما زالت تتشكل بينما يتشكل التحالف والدول تعلن عما هي مستعدة لفعله».

وفي السياق، قررت أستراليا إرسال قوة عسكرية من 600 فرد، وطائرات مقاتلة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة للمشاركة في التحالف الدولي لمحاربة تنظيم «الدولة الإسلامية».

وقال رئيس وزراء استراليا توني أبوت أمس، إن بلاده سترسل قوات عسكرية وطائرات مقاتلة إلى الإمارات لمساعدة الائتلاف الدولي في محاربة التنظيم الإرهابي، مؤكداً أن هذه الخطوة إسهام «متعقل ومتناسب» في الائتلاف الدولي وأن حكومته لم تتخذ بعد قراراً بإرسال قوات لخوض أعمال قتالية.

وفي شأن متصل، قال كبير موظفي البيت الأبيض دينيس ماكدونو أمس إنه سعيد بالتقدم الذي أحرز في مسألة الحصول على تفويض من الكونغرس يتيح للولايات المتحدة تدريب وتجهيز «المعارضة السورية» لقتال مسلحي تنظيم «الدولة الإسلامية».

وقال ماكدونو: «نرى تقدماً جيداً للغاية في الكونغرس بما في ذلك في مجلس النواب تحت رئاسة الجمهوري جون بينر، لضمان أن لدينا السلطة لتدريب وتجهيز المعارضين السوريين الذين يقاتلون تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام»، إذ من المتوقع أن يصوت الكونغرس على هذا الموضوع خلال الأسبوع الجاري.

المالكي: «داعش» يريد الاحتماء تحت عنوان عدم قصف المدن

العبادي: قطر غيرت موقفها تجاه العراق وتركيا ترغب بالتعاون

اعتبر رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي أمس، أن قطر غيرت موقفها تجاه العراق، وفيما أشار إلى أن دول العالم ومن ضمنها تركيا ترغب في التعاون مع العراق للمشاركة في الحرب ضد «الإرهاب»، أكد أن البلاد ليست بحاجة إلى مقاتلين أجانب في هذه الحرب.

ونقلت قناة العراقية شبه الرسمية في خبر عاجل تابعته «السومرية نيوز» عن العبادي قوله إن «العراق يرغب بإقامة علاقات جيدة مع الدول العربية والخليجية»، منوهاً إلى أن «قطر غيرت موقفها تجاه العراق».

وأضاف العبادي: «لقد نبهنا العالم قبل سنتين إلى الخطر الإرهابي ضد العراق»، مؤكدا أن «دول العالم تطلب منا الإذن للمشاركة في الحرب ضد الإرهاب». وتابع: «تركيا ترغب في التعاون مع البلاد ضد الإرهاب»، لافتاً إلى أن «العراق ليس بحاجة إلى مقاتلين أجانب في حربه ضد الإرهاب».

وقال رئيس الوزراء: «إن هجوم عصابات داعش على العراق لم يكن اعتباطياً»، مشيراً إلى أن «وقف قصف المدن يهدف إلى إعطاء مهلة لسكانها للقيام بواجبهم في تحرير مدنهم». وأضاف: «أن قوى الشر أنفقت 3 مليارات دولار على الجماعات الإرهابية»، لافتاً إلى أن «الذين دعموا عصابات داعش يشعرون بالخطر عليهم الآن».

وكان العبادي قد أكد أنه أصدر أوامر قبل يومين بإيقاف القصف على جميع المدن التي يوجد فيها مدنيون حتى وإن وجد فيها «داعش».

من جهة أخرى، أكد النائب الأول للرئيس العراقي نوري المالكي أن جماعة داعش الإرهابية تريد الاحتماء تحت عنوان عدم قصف المدن، مشيراً إلى أن بعض المدن التي هجرها أهلها وأصبحت معسكرات لعصابات «داعش» تختلف في حكمها عن المدينة التي يوجد فيها مواطنون.

وأفاد موقع «السومرية نيوز» أن المالكي قال في مؤتمر صحافي مشترك عقده، مع محافظ كربلاء عقيل الطريحي: «إن بعض المدن الآن مهجورة، هجرها أهلها وتحولت إلى مناطق سكن لداعش». وأضاف:

«هذه ليست مدن وإنما معسكرات لداعش يختلف حكمها عن حكم المدينة التي فيها مواطنون، كون هؤلاء عصابة اجتمعت في مكان وتريد أن تحتمي بعنوان عدم قصف المدن».

وحذر المالكي مجدداً «من قصف المدن العشوائي، نحن نستهدف داعش الذي يتسبب بأذية المواطنين»، موضحاً أن «المدينة التي فيها سكان يجب أن يكون فيها أقصى درجات الحذر في ضرب الأهداف».

على الصعيد الميداني، هاجمت عشائر العبيد في العراق أمس تنظيم «داعش» واشتبكت معَ مسلحيه في منطقة القراج شمالِ غربي كركوك، وتمكّنَتْ من قتل عشرة عناصر.

وواصل الجيش العراقي عملياته ضدّ داعش وتقدَّمت قواته مع المتطوّعين في منطقة البو حسن المحيطة بناحية آمرلي في محافظة صلاح الدين. وقصفت مواقعَه في البو حسن والمناطق المحيطة حيث تستعدّ لدخول المنطقة بغطاء مدفعيّ وجويّ لفك الحصار عن آمرلي.

وأعلن متحدث عسكري في الجيش العراقي أنه طرد مقاتلي «داعش» من بلدة البو حسن التابعة أيضاً لآمرلي شرق تكريت بمعاونة «سرايا السلام»، وبغطاء مدفعي وجوي على ما قال متحدث عسكري في البو حسن والمناطق المحيطة بها.

وأوقع القصف على مواقع «داعش» قتلى في صفوف التنظيم حيث تواصل مدفعية الجيش قصف المناطق الحدودية لناحية آمرلي ومناطق طوزخرماتو وسليمان بيك وقرية يكنجة.

وفي المشهد الأمني كذلك، هاجمت عشائر العبيد تنظيمَ «داعش» واشتبكت مع مسلحيه في منطقة القراج شمال غربي كركوك وقتلت عشرة عناصر.

بيروت 82: الحرب ... (تتمة ص1)

وقعت عام 2006، إلاّ أن البعض، عن قصد أو غير قصد، يصّر على تسميتها "اجتياحاً" ليوحي وكأنها كانت حرباً عاصفة استمرت لأيام أو ربما لساعات وحققت أهدافها وانتهت، وهذا التوصيف لحرب 1982 ينطوي على مخاطر أبرزها التقليل من أهميتها وتصويرها مجرد حرب عابرة، فيما هي حرب أسست وبالمقاييس الموضوعية لكثير من المراحل اللاحقة في لبنان وفلسطين وسورية والعراق وغيرها من دول المنطقة.

ثاني هذه الحقائق، إنّ عدونا قد حشد لهذه الحرب المنسية من الجيوش والسلاح والعتاد ضعف ما حشده في العديد من الحروب الأخرى، (مئة ألف جندي و 1200 آلية عسكرية ومئات الطلعات الجوية)، وإنه خسر في هذه الحرب واحداً من أكبر جنرالاته يكوتيئل آدم، نائب رئيس الأركان، والآلاف من جنوده مما دفع بالجنرال آلي حيفا قائد اللواء المدرع إلى الاستقالة رافضاً احتلال العاصمة بيروت لما يتسبب ذلك من تكاليف بشرية باهظة.

ثالث هذه الحقائق، أن عدد شهداء هذه الحرب من لبنانيين وفلسطينيين وسوريين، ومعظمهم من المدنيين، قد بلغ أكثر من 15 ألف شهيداً، بحسب الإحصاءات الرسمية اللبنانية (من دون أن نَحسب شهداء مجزرة صبرا وشاتيلا وعددهم لا يقل عن ثلاثة الآلاف) وهو ما يجعلها من أكثر الحروب مع العدو من حيث كلفتها البشرية الباهظة.

لا بل تقول إحصاءات نشرتها جريدة «النهار» إن عدد القتلى من المدنيين والعسكريين اللبنانيين قد بلغ 17825، يضاف إليهم 2000 سوري، فيما خسر العدو فيها 650 عسكرياً و6 أسرى بادلتهم قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في ما بعد بجميع الأسرى في معتقل أنصار وعددهم خمسة آلاف.

رابع هذه الحقائق، أن تلك الحرب بكل المكونات المشاركة فيها كانت حرباً عربية قومية شاملة، فلقد شارك فيها وبكل بسالة مقاتلو الحركة الوطنية والشعبية اللبنانية، ورجال المقاومة الفلسطينية، وأبطال الجيش العربي السوري، ومتطوعون مصريون وعراقيون ويمنيون ومغاربة وجزائريون وتونسيون وخليجيون بالإضافة إلى متطوعين من أحرار العالم، فكانت بيروت ساحة قتال جامعة لكل مكونات الأمة والإقليم والعالم.

يومها كان المتطوعون يتداعون لمواجهة أعداء الأمة وللجهاد في سبيل القدس ومقدساتها لا لقتل أبناء الأمة تحت شتى المبررات والأعذار.

خامس هذه الحقائق، كانت تلك الحرب، بكل المكونات المشاركة فيها، حرباً لبنانية وطنية حيث حملت السلاح جنباً إلى جنب كل أحزاب الحركة الوطنية وتجمعات القوى الشعبية وجيش لبنان العربي، وكان العروبي ناصرياً أو بعثياً أو قومياً يقاتل إلى جانب الشيوعي والسوري القومي والإسلامي كحركة أمل واتحاد الطلاب المسلمين، وكان مواطنون بسطاء من كل المشارب والبيئات جزءاً لا يتجزأ من تلك المعركة، ويشكّلون بيئة حاضنة للمقاومة المظفرة.

سادس هذه الحقائق، لقد أسست تلك الحرب عام 1982 لانطلاق المقاومة الوطنية فالإسلامية التي باتت بشهادة العدو قبل الصديق، أحد أبرز ظواهر العقود الثلاث الماضية، وساهمت، ولا تزال، في تغيير معادلات في الصراع والمنطقة في آن.

وإذ تُعتبر جذور المقاومة عميقة في التربة الشعبية اللبنانية منذ أواخر الستينات حيث كان للبعثيين والشيوعيين مبادراتهم الرائدة في صمود الجنوب والدفاع عنه في معارك محدودة في حجمها كبيرة في تفاعلاتها، (شبعا، الطيبة، كفركلا، وغيرها)، فإن المقاومة الإسلامية التي ولدت براعمها في تلك الحرب (1982) تحولت مع الأيام إلى ما تحولت عليه من مصدر قلق وخوف غير مسبوق لدى العدو الصهيوني.

سابع الحقائق، كشفت تلك الحرب، ولا سيما معركة بيروت، حجم التواطؤ والصمت الرسمي العربي، وحجم التقصير الشعبي العربي حيث كانت أنظار الكثيرين من العرب مشدودة إلى مونديال كرة القدم بعيداً عما يجري في لبنان. تماماً كما كشف التوغل الصهيوني في شوارع العاصمة صبيحة 14 أيلول 1982 حجم التواطؤ الدولي والتنصل من اتفاقات عقدها المبعوث الأميركي آنذاك فيليب حبيب ومساعده موريس درايبر، لتنظيم خروج القوات الفلسطينية والسورية من بيروت مقابل إرسال قوات متعددة الجنسية لحماية المخيمات، فإذا بهذه القوات تنسحب قبل ساعات من اغتيال بشير الجميل في 1982/9/3، لتدخل في اليوم التالي القوات الصهيونية إلى بيروت وسط إنكار درايبر المتكرر لرئيس الوزراء آنذاك الراحل شفيق الوزان الذي زاره فجر ذلك اليوم على رأس وفد بيروتي الأستاذ بشارة مرهج وعدنان عيتاني وفؤاد الحلبي لإبلاغه عن التوغل الصهيوني في العاصمة، فكان درايبر يصّر للوزان مراراً على أن تحركات الجيش الصهيوني هي مجرد إعادة تموضع ولا تنطوي على أي عملية عسكرية ضد العاصمة، فكان القرار يومها «إن العار ليس في أن تدخل قوات العدو عاصمتنا ولكن العار كل العار أن لا تجد فيها من يطلق الرصاص عليها». وهكذا كان فانطلقت الرصاصات الأولى من حي الفاكهاني في الطريق الجديدة وكان أول شهيدين من بيروت من أبناء الطريق الجديدة محمد الصيداني وعصام اليسير اللذين أعلنا بالدم شهادة انطلاق المقاومة الوطنية من قلب عاصمة الوطن.

أما المخيمات التي يفترض بالاتفاق الدولي حمايتها عبر قوات متعددة الجنسية فقد وجدت نفسها في اليومين التاليين لاحتلال العاصمة ذبيحة وحشية الصهاينة وعملائها في واحدة من أكبر مجازر العصر التي لو جرت محاكمة مرتكبيها، لما كان مجرمو الحرب في الكيان الصهيوني يكررون مجازرهم وآخرها مجازر غزة الوحشية.

فكما لم يستطع ما يسمى «بالمجتمع الدولي» على مدى 22 عاماً تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 425 الصادر في آذار 1978 بسحب قوات العدو المحتلة من جنوب الليطاني، فان كل الاتفاقيات والوعود لم تحم الشعب الفلسطيني ومعه مئات اللبنانيين والسوريين والمصريين في مخيمي صبرا وشاتيلا من مجزرة رهيبة، بما يؤكد أن لا شيء يحمي الشعوب والأوطان إلاّ الاعتماد على ذاتها وسلاحها ووحدتها.

لقد انتهى ذلك الفصل من الحرب الصهيونية المستمرة على أمتنا بخدعة دولية تماماً مثلما بدأ بخدعة يوم «طمأنت» واشنطن وحلفاؤها الأقربون والأبعاد كلاً من الحكومتين اللبنانية والسورية ومعهما قيادة منظمة التحرير بأن الحرب «الإسرائيلية» لن تتجاوز حدود نهر الأولي وأن هدفها هو إبعاد المستعمرات الشمالية عن مدى الصواريخ الفلسطينية، وكأن هناك عملية عسكرية عدوانية يمكن السكوت عنها وأخرى لا يجوز السكوت عليها.

وأذكر يومها أنه حين لقائي بالرئيس الشهيد ياسر عرفات صبيحة الأحد في 1982/6/6 في إحدى مقراته السرية، وكان قد عاد للتو من الرياض بعد أن قطع زيارته مع أخبار العدوان، كيف أن أبو عمار كان يؤكد لي، ولكل من التقاه، أن حدود العملية «الإسرائيلية» لن يتعدى نهر الأولي، وهو ما كان مخالفاً لتقديرنا آنذاك، فقد كنا نعتقد إن العدو سيصل إلى العاصمة وسيسعى إلى تغيير المعادلة السياسية فيها، وهكذا كان.

الحقيقة الثامنة: لم تكن حرب 1982 مجرد صمود عسكري وسياسي فحسب، بل كانت تمثل مشهد صمود اجتماعي رائع امتد على مدى أشهر ثلاثة حُـرِمَ فيه أهل بيروت من الماء والكهرباء والطعام في أغلبه، وكان عليهم أن يتدبروا أمرهم بالوسائل المتيسرة فيما كان العدو يمنّي النفس بلحظة يرفع فيها أهل بيروت الأعلام البيضاء ويخرجون في مسيرات ضد المدافعين عن وجود الأمة من خلال معركة بيروت.

صحيح أن العديد من السكان اضطر لمغادرة العاصمة تحت وطأة القصف الهمجي الذي وصل إلى حد تدمير أبنية بكاملها على رؤوس سكانها بل تحت وطأة حصار تمويني خانق، فيما على بعد أمتار شرق المتحف أو المرفأ أو المحاور الأخرى كان يتوافر كل شيء، لكن الذين صمدوا في بيروت، مقاتلين ومواطنين، قدموا ملحمة في التكيف مع ظروف مستحيلة، حتى إذا ما أطل «الجنرال رمضان» على بيروت والحرب فيها على أشدّها تحولت فرحة الصائم يومها إلى فرحتين – كما قلت في مقال آنذاك – فرحة بيوم من الصيام وبيوم من الصمود معاً.

وبالمقابل كان احتضان بقية اللبنانيين لأشقائهم دليلاً على الوحدة العميقة بين أبناء الشعب اللبناني، خصوصاً أن رفض العدوان على العاصمة لم يقتصر على فئة من اللبنانيين بل شمل غالبيتهم التي كانت تعبر عن رفضها له بأشكال مختلفة وهو ما أسس لوحدة شعبية لبنانية حقيقية أرعبت الصهاينة، فخططوا لاستخدام فريق لبناني في مجزرة صبرا وشاتيلا ومن ثم لإشعال حرب الجبل، ولتحريك كل النعرات الطائفية والمذهبية المستمرة والمتفاقمة حتى الساعة، وهو ما أسميناه يومها «بالعصر الإسرائيلي» الذي أراد العدو إدخال لبنان فيه بعد اضطراره للخروج منه مدحوراً.

في تلك اللوحة الاجتماعية الإنسانية الرائعة، كان الأمن الجماعي والفردي مستتباً، فلم يسجل طيلة الأشهر الثلاثة إلا العدد المحدود جداً من التجاوزات، على رغم أن كل شيء كان مباحاً حيث لا سلطة قانونية تحاسب، وكنا نقول يومها في الحروب يهرب اللصوص، وبعد أن يحل السلام يزحفون لسرقة الناس ونهب ثرواتهم بالجملة والمفرق.

بل في لوحة الصمود الاجتماعي، التي باتت تتكرر في أكثر من مدينة تواجه حصاراً، كنت ترى كتائب العمل التطوعي والاجتماعي والصحي والتمويني والإسعافي والإنمائي تعمل جنباً إلى جنب مع كتائب المقاومة اللبنانية – الفلسطينية المشتركة والجيش العربي السوري، بل أحياناً لم تكن ترى في الشوارع سوى سيارات الإسعاف لجمعيات الدفاع المدني، ولم تكن تسمع إلى جانب أزيز الرصاص سوى صفارات الإنذار وهي تنقل جثة من هنا، وتسعف جريحاً من هناك، وتطفئ حريقاً في بناء لم ينج من الحريق الكبير، وأحياناً تصاب إحداها بقذيفة صهيونية فيستشهد المتطوع أو المسعف ليهرع رفاق له لنقله إلى أحد المستشفيات الميدانية القريبة التي امتلأت بها أحياء العاصمة، كما امتلأت تلك بأطباء وممرضين متطوعين صمدوا في غرف عملياتهم كما يصمد أشجع المقاتلين في خنادقهم.

وفي الشارع أيضاً في تلك الحرب، كنت ترى هيئات الإغاثة تتحرك من تجمع للمهجرين داخل العاصمة وبين أحيائها إلى تجمع آخر تحمل له الغذاء والدواء وكل ما يحتاجه.

في تلك الحرب المنسية أدرك الناس كيف يتقدم المجتمع بمنظماته التطوعية في زمن الحروب والأزمات ليملأ فراغاً تتركه الدولة وليعالج مشكلات الناس على أنواعها، طبية أو تموينية أو إنسانية، بما يعزز من وحدة الناس.

وعلى رغم أن هذا الجانب من تلك الحرب بقي هو الآخر منسياً إلى حد بعيد، لكنه أسس في ما بعد لظاهرة المنظمات والجمعيات الأهلية، والتي اتكأ إليها المجتمع اللبناني في الأزمات الدامية التي واجهها بعد عام 1982، وربما حتى الآن، مع الإشارة إلى أن هناك – على ما يبدو – مخططاً لإغراق الجمعيات الناشطة فعلاً بجمعيات وهمية أو دكاكين، تسيء للعمل الاجتماعي، كما تسيء دكاكين السياسة للعمل السياسي، وتتمكن بشطارة وسائلها، وتواطؤ بعض المسؤولين معها، أن تنهب ما تيسر من موارد مخصصة لمثل هذه الجمعيات.

الحقيقة التاسعة لم يكن في حرب 1982، وسائط الاتصال التي تضج بها حياتنا هذه الأيام، فلا مواقع التواصل الاجتماعي على أنواعها كانت موجودة، ولا حتى خدمة الخبر العاجل، أو الفاكس، أو الانترنت وغيرها، كان الاتكال فقط على من صمد من الصحف كـ«السفير»، كل صباح، على رغم تعذّر حصول المحررين على الأخبار بالسرعة المطلوبة، وكان الاعتماد على من صمد من الإذاعات المحلية (صوت لبنان العربي) و(صوت فلسطين) ما تيسر من الأخبار، وكانت الأيادي تتناقل نشرات مطبوعة على «الستانسل» «كالثبات» و«المعركة» و «رصيف81» بالإضافة إلى «صوت الشغيلة» وكانت أكثر من نشرة وأقل من صحيفة وقد استشهد بعض كتّاب تلك النشرات وهم يوزعونها، على المواقع القتالية والخنادق وكانت تحمل من التوجيهات والنداءات التعبوية أكثر مما تحمل من الأخبار، بالإضافة إلى جرائد حائط كان يكتبها صامدون على جدران المدينة بين كل قذيفة وقذيفة، وهدنة إنسانية وأخرى.

حال التلفزة لم يكن بأحسن من غيرها، فالتلفزيون الرسمي، وكان وحده موجوداً آنذاك، وربما هذه من حسنات تلك الأيام ولكنه كان يبث من شاشتين إحداهما «غربية» تبث من تلة الخياط، والأخرى «شرقية» تبث من الحازمية، وكل منهما متأثر بالأجواء المحيطة بهما فيما كان وزير الإعلام حينها الأستاذ ميشال اده يجهدُ نفسه بالتنقل بين مكتب وزارته في الحمرا ومنزله في بعبدا، لكي يحافظ على الحد الأدنى من الخطاب الوطني الجامع، إلى درجه أنه حرص من خلال حلقتين تلفزيونيتين ظهر بهما وهو يحذر من الخطر الصهيوني وبثت الحلقتان آنذاك من تلفزيون الحازمية فيما كانت دبابات العدو تحيط بالمحطة وترابط على مدخلها من كل جانب فيما اعتبر موقفاً شجاعاً بوجه الاحتلال من رجل اختار منذ فتوته مواجهة الفكر الصهيوني ودحض مقولاته.

كان الصامدون من الإعلاميين والمصورين الصحافيين، لبنانيين وفلسطينيين وأجانب في بيروت مفخرة شعبهم وأمتهم والعالم، ومن بينهم خرج في ما بعد بعض أشهر الإعلاميين العرب والعالميين، إذ يكفيهم أنهم خريجو حرب بيروت وصمودها وحصارها.

أما عاشر هذه الحقائق، وربما أهمها، هو أن العدو على رغم التفوق الكاسح في عديده وعتاده بقي متسمراً على أبواب العاصمة أكثر من شهرين ونصف من دون أن يستطيع التقدم على أي محور من محاور القتال سواء في المطار أو الأوزاعي أو الليلكي الحدث، وخصوصاً المتحف حيث بات معروفاً أنه بعد يوم كامل من القصف البري والجوي والبحري، لم يستطع التقدم على المحور سوى أمتار قليلة هي أقل من طول دبابة «الميركافا» التي كان يفاخر بها يومذاك. وما جرى من بطولات على ذلك المحور جرى أيضاً على المحاور الأخرى، كما في المناطق الأخرى كخلدة وقائد معركتها العقيد الشهيد عبد الله صيام والشقيف ومقاتلوها الذين توزعوا بين شهيد وجريح وأسير، ومعركة الأولي والمفقودين الستة فيها، ومخيمات عين الحلوة والمية ومية ومخيمات صور والرشيدية وبرج الشمالي والبص وقائدها الشهيد عزمي الصغير، وكمعركة بحمدون وعين دارة في الجبل، والسلطان يعقوب في البقاع الغربي حيث أوقف الجيش العربي السوري يومها تقدم قوات الاحتلال لقطع طريق بيروت – دمشق.

وحين استطاع العدو استخدام خدعة دولية للتوغل في شوارع العاصمة، بعد انسحاب المقاتلين الفلسطينيين والجنود السوريين والمتطوعين العرب، واجه داخل العاصمة، وفي كل أحيائها بدءاً من الطريق الجديدة مقاومة ضارية، وعمليات بطولية، كما جرى في جسر سليم سلام وسبيرس والقنطاري وعين المريسة وكورنيش المزرعة والمنارة وتوجتها آنذاك عملية الويمبي وبطلها الشهيد خالد علوان، فاضطر العدو للاندحار بعد أيام وجنوده يصرخون بمكبرات الصوت: يا أهالي بيروت لا تطلقوا النار علينا... إننا خارجون.

كان الانسحاب غير المشروط من ثاني عاصمة عربية محتلة بعد القدس، أول انتصار حقيقي للمقاومة على المحتل، وتأسيساً لمقاومة شملت كل أرض لبنانية محتلة حتى كان الاندحار الكبير لقوات الاحتلال في 2000/5/25، ومنذ ذلك الانتصار اللبناني والعربي والاندحار الصهيوني، دخل العدو عصر الهزائم ودخلت مقاومتنا العربية، لبنانية وفلسطينية وعراقية عصر الانتصارات. إذ سبقت الغارة الصهيونية على مفاعل تموز النووي في العراق الحرب على لبنان بسنة واحدة.

نعم كانت بيروت أول الانتصارات، وكانت المقاومة هي الطريق لهذه الانتصارات.

معن بشّور